الفصل الثالث

مُشكلة (الرؤيَة الكونيَّة) في المسرح الغربي المعاصِر

لن يعنينا هنا الجانبُ المادي من الكون ، هذا الذي يتحدى بنظامه المعجز أشد العقول رغبة في البحث عن الفوضى وفرضها على العالم والكون فرضاً (فارجع البصر هل ترى من فطور ؟ ثم ارجع البصر كرتين ! ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ! !) والناس — على اختلاف آرائهم ونظراتهم — يجمعون على هذا النظام الذي يأخذ بحركة الكون في كل امدائها . وبغض النظر عن مصدر هذا النظام في آراء الناس : الله ، أم الروح المطلق ، أم العقل الكلي ، أم الطبيعة ، فإن هذا الإجماع أمر متفق عليه .

الذي نعنيه بفوضى الكون إذن هو الجانب العقائدي ، التصوري . . هو تحديد موقف الإنسان من هذا الكون . . هو الهدف من خلق الكون والمصير الذي سيؤول إليه بما عليه من خلائق . . هو طبيعة العلاقة القائمة بين الإنسان وبين الكون الذي يضطرب فيه . . هو الحكمة الأخيرة — إن كانت

هنالك حكمة – في تشكيل الكون بهذا الشكل ، وفي وضع الإنسان فيه بهذا الوضع . باختصار هو كل ما حاولت الأديان السماوية والمبادىء الوضعية – على السواء – أن تجد له حلاً . وإذا كانت الأديان تنبثق عن منهج إلهي ، والمبادىء الوضعية تنبثق عن نسق معين من التفكير القائم على التأمل أو الاستقراء ، فإن الفن ، والفن المسرحي بالذات ، بوضعه الراهن ، لا يلتزم هذا الطريق أو ذاك ، ومن ثم فهو ينقل بأمانة ومن زوايا عديدة للرؤية ، موقف الإنسان المعاصر إزاء الكون . وتفسيره الفكري والوجداني للأسئلة التي طرحناها أوّل مرة وقلنا ان الجواب عنها يشكل – بمجموعه – العقيدة التي يتخذها هذا الإنسان أو ذاك ، وينظر من خلالها هذا الفنان أو ذاك إلى الكون وحكمة خلقه ، وإلى المصير الذي سيؤول إليه الإنسان في هذا الكون . . وإذا كانت فوضى العالم – في نظر المسرح المعاصر – تنبثق عن مواضعات إنسانية صنعها الإنسان بيديه ، واختارها لكي تكون عناصر أساسية في حضارته الراهنة : كالآلية والجماعية والعزلة – التي هي في نهاية المطاف نتيجة عجزه الذاتي عن الاتصال بالآخرين – وكالرعب الذري وتهافت النظم العسكرية والسياسية والاجتماعية ، فإن فوضى الكون – في نظر هذا المسرح – ليست في حقيقتها مواضعة إنسانية صنعها الإنسان بيديه ، إنها تنأى عن إرادته ، وتتجاوز مدى مقدرته على تحريك الأشياء في هذا العالم ، إنها مظهر

شكلته قوى تفوق الإنسان بكثير ، قوى إلهية عاقلة حكيمة مدبرة ، أو قوى الصدفة العمياء التي تلف الكون في دوامتها الكبرى .. ومن ثم فإن مأساة الإنسان إزاء هذا الكون الذي لا يقوم – في نظره – على أساس منتظم هي أشد تعاسة بكثير من مأساته إزاء فوضى لا تتجاوز مدى العالم الذي يعيش فيه ، ولا تتعدى إرادته وموا ضعاته ، والتي بإمكانه تغيير ها وتشكيلها من جديد .

إن إنساناً يقف حائراً مشدوهاً في كون لانهائي لا يقدر أشواق الإنسان ولا يعطي معنى لمصيره ، هذا الإنسان خليق بأن يأسر لب الكتاب المسرحيين فيعرضونه كبطل على خشبة المسرح ، بطل يصرخ – نيابة عنهم – في وجه الفوضى والغموض الذي يلف الكون والذي يحيل الحياة الإنسانية على الأرض إلى عبث وسخف لا نهاية لهما . . وإلى جهد لامعقول يبذله الإنسان طوال حياته دونما جدوى .

ولنبدأ بكامي Camus ونقف معه طويلاً ، فهو أول من كرس جل مسرحياته للتعبير عن هذه الفوضى التي تلف الكون ، وهو أول من حاول بلورة رؤياه هذه في مواقف محدّدة ، يعبر أبطاله من خلالها ، عن موقف كامي نفسه إزاء الكون . . تلك المواقف التي أخذت تزداد تكراراً ونمواً وتطرفاً حتى بلغت حداً كبيراً من التبلور والوضوح على يد

رواد المسرح الطليعي Theatre de l'avant - garde يونسكو وبيكت وآداموف وجينيه وغيرهم ، والتي أدرجت من ثم تحت اسم العبث أو اللامعقول ، وهما الزاويتان اللتان نظر هؤلاء الكتاب جميعاً — ابتداء من كامي وحتى يونسكو — من خلالهما إلى الكون والعالم .

يطرح كامي على خشبة مسرحه أبطالاً مفعمين بالحس العبثي إزاء عالم[1] غير معقول ، لا يقوم على أي أساس من المنطق . عالم بلا هدف ولا مصير معلوم ، علاقته بالإنسان علاقة مجنونة مترعة بالغموض والفوضى . . إن الناس يولدون.. ثم مايلبثون أن يموتوا وهم ليسوا سعداء .. لماذا؟ ان هذه الواقعة المأساوية هي التي تأسر لب أبطاله جميعاً وتسوقهم إلى العبث (ما دمنا سنموت فليس لأي شيء معنى) . إن كاليغولا ، الامبراطور الروماني ، بطل مسرحيته الأولى التي تحمل نفس الاسم ، يفقد وهو في سن الواحدة والعشرين ، أخته دروزيللا التي كان قد جعلها عشيقته ، ولهذا فإنه قرر أن يجابه عبث العالم بعبث الإنسان . فغادر القصر وهام على وجهه ثلاثة أيام بحثاً عن القمر ! ! عن المستحيل ! ! وسرعان ما حوله الشقاء من ذلك الشاب النبيل إلى رجل غامض يصعب التفاهم معه « إن موت دروزيللا — كما يعترف بذلك — (ليس شيئاً)

---

(١) سترد كلمة (العالم) في كثير من الأحيان بدلا من (الكون) والمعنى واحد ، إذ أن كلتيهما تهدفان إلى ما شرحناه من قبل .

في حد ذاته ولكنه فقط فرصة هذا الاكتشاف الذي لن يدعه يعرف الراحة حتى اللحظة التي سيقضي فيها نحبه في نهاية المسرحية ، إن هذا الاكتشاف الفظيع لتفاهة الحياة، جعله يدفع حياته هو ثمناً له »[٢] .

ويبدأ كاليغولا بالقتل العمد والاضطهاد والاغتصاب وتحدي القيم والمقدسات ، إنه يريد أن يستغل سطوته كامبراطور لتغطية العالم بالعبث الذي هو الأسلوب المنطقي الوحيد لمقابلة عالم لا يعرف المنطق . إنه يريد أن يعيد صنع العالم لأنه فهم ذلك « إن أعمال القتل — أياً كانت — تتساوى في الأهمية (أي انها لا أهمية لها قطعياً) وان الناس مذنبون جميعاً بقدر واحد ، لأنهم من رعايا كاليغولا . . وانه يجب أن تعتبرّ الحياة لا شيء . . وانه سواءٌ أبقي المرء مستيقظاً أم نام، ما دام عديم الأثر على نظام العالم . . وأخيراً فإنه لا توجد إلاّ وسيلة واحدة تجعلنا مساوين للآلهة ، وهي أن لا نقلّ عنهم قسوة وضراوة »[٣] إن كاليغولا يقول (إننا لا نفهم القضاء ولهذا فقد جعلت من نفسي قضاء) ومن ثم يبدأ بالقتل لأنه أعمى ويشعر بالملل والسأم عندما لا يقتل . وأخيراً يعترف كاليغولا بهزيمته (لن أحصل على القمر) ثم يحكم على نفسه

---

(٢) البير كامي : العادلون ، ترجمة وتقديم بسيم محرم ود . ريمونه فرنسيس ، المقدمة ص ٢٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٢ .

(كاليغولا أنت أيضاً ، أنت أيضاً مذنب) (إنني لا أصل إلى شيء ، إن حريتي ليست الحرية السليمة) ويسدل الستار وكاليغولا يتلقى الضربات من سكين أقرب رجاله إليه ! ! »

« ويجب أن نلاحظ ، ونحن بصدد الحديث عن مسرحية كامي الأولى هذه ، أن كامي نفسه عانى في هذه الفترة عناءً شديداً من مرض السل الذي أصابه ، وانه قد ذاق طعم الموت قبل أن يختطفه الموت ، فليس بغريب — إذن — أن تسيطر على عقله وقلبه فكرة بشاعة المرت وشقاء الناس بالحياة »[٤] .

يقول كامي في كتابه (الرجل المتمرد) جملته المعهودة « إن الشعور بالعبث . . يجعل القتل على الأقل لا أهمية له . . وإذن يجعله جائزاً ممكناً » . وفي مسرحية (سوء التفاهم) التي كتبها كامي بعد مسرحيته الأولى ، تقول مارتا (إن ما هو إنساني عندي هو ما اشتهيه ، وللحصول على ما أشتهيه أعتقد اني سأحطم كل شيء يقف في طريقي) . إن هذه العبارة هي مفتاح المسرحية : سوء التفاهم . إن الإنسان الذي يقف وجهاً لوجه أمام عبث عالمه وسخفه ، لا يجد أي مبرر لتمسكه بقيمة ما من القيم الإنسانية العتيقة البالية التي عفا عليها الزمن ، والتي بانت تفاهتهـــا ولاجدواها عندما تمزق الغطاء الأخير عن عبث العالم . . إن مارتا وأمها تقتلان النزلاء

---

(٤) البير كامي : كاليغولا ، ترجمة وتقديم علي عطية رزق ، المقدمة ص ٢٨ .

في فندقهما الصغير في تلك المدينة المعتمة الرطبة النائية ، من أجل أن تحصلا على النقود لتساعدهما على الهجرة إلى بلاد الشمس والجمال . . وما المانع ما دام القتل عملية لا أهمية له ؟ « بما أن مارتا قررت أن هذا العالم يضايقها ، وان هذا الفندق الصغير في بلد ممطر كئيب ، وان هذا المنزل المشؤوم منزل الجريمة ، تعوقها جميعاً عن أن تكون ما هي وما تريد أن تكون ، إذن فلا شيء ولا أحد يصبح له اعتبار أمام رغبتها في الخروج من هذا العالم : القمر لكاليغولا ، البحر والشمس لمارتا . لن يتوصل أي منهما إلى ما يشتهي »[٥] .

في هذه المسرحية يقابل كامي — ثانية — بين عبث العالم وعبث الإنسان ، ولكن الإنسان ينهزم هنا مرةً أخرى[٦] . إن الأم تطلب من ابنتها تأجيل القتل ، ليلة نزل ابنهما المجهول في فندقهما (ليس هذا المساء ، لنترك له هذه الليلة . . لنعط أنفسنا هذه المهلة) ولكن مفهوم كامي عن العالم الذي تحرك فيه الضرورة آلاتها شداً وجذباً وفق منطق أعمى ، هذا العالم ليس فيه مجال للامهال أو التأجيل ، إن الإنسان في ذلك العالم ضحية للحريات التي اكتسبها . . ستوجد دائماً مارتا تقوم — كما قام كاليغولا — بدور القضاء، لتقودنا إلى حيث لم نكن

---

(٥) العادلون ، المقدمة ص ٣٧ .

(٦) سبق وان عرضنا الخطوط الرئيسية لمسرحية (سوء التفاهم) في الفصل السابق .

نريد أن نذهب »[٧] والأم تدرك هذا فتردد (إن العالم نفسه ليس معقولاً).

أما مسرحية كامي الثالثة (حالة الحصار) فإن الطاعون يحلّ فيها محل كاليغولا في المسرحية الأولى، وتقع حوادثها في قادش إحدى مدن اسبانيا التي كان مقدراً لها ألا تتحدث عنها الأجيال التالية، بسبب الطريقة الطيبة التي كانت تحكم بها. وقام الطاعون وسكرتيرته الموت باحلال منطق سخيف ولكنه مدعم، منطق متماسك لا نقض فيه، محل العبث الذي كانت تعيش فيه المدينة في هدوء ورضا، وسط عاداتها وتقاليدها اللامعقولة، وسيحكم الطاعون والموت المدينة بعد أن تغلق منافذها، وبعد أن يطردا منها الحاكم وحاشيته.. إن كامي يشرح الأمر في كتابه (الرجل المتمرد) ويقول (ان الثورة تنشأ من منظر الجهل وسوء التفكير، أمام وضع غير عادل وغير مفهوم)، وهذه هي التجربة التي سيقوم بها الطالب دييجو: إنه سيثور ضد الطاعون ويتحداه ويسيطر على خوفه ويتخلى عن حبه لفكتوريا ابنة القاضي ويقبل الموت لينقذ المدينة من الطاعون، وخطيبته من الموت. إن دييجو سيرفض استبداد الشر وحكمه، وظلم القضاء، والموت غير المقبول الهدام الذي يتخذه نارا الهدام، الذي

---

(٧) العادلون، المقدمة ص ٣٠.

ألحقه الطاعون في خدمته ، والذي يكفر بكل شيء .. إلاّ أن دييجو – مثل كاليغولا – سيدفع غالياً ثمن حلمه وشوقه لحرية مستحيلة . إن كاليغولا قد مات دون جدوى ، ما دام الطاعون قد عاد في (حالة الحصار) .. وسيموت دييجو دون فائدة ما دام الحاكم قد عاد بعد أن هزم الطاعون هزيمة مؤقتة [٨] .

ذلك إذن هو المصير الذي ينتظر أولئك الذين يعلنون تمرّدهم على عبث العالم ولامعقوليته .. « إن العالم الذي يحاصره الطاعون ، أي يحاصره الشر ، أي يحاصره العبث ، هو عالم لا يقل سوءاً عن عالم (كاليغولا) وعالم (سوء التفاهم). إن ما يؤمن به نارا في (حالة الحصار) لا يختلف كثيراً عما يؤمن به كاليغولا ، وهو قريب الشبه بإيمان مارتا : إن الحياة تساوي الموت ، والانسان خشب يستعمل في الوقود والأفران ، والرجال يتم نضجهم لمواجهة المصائب ، وخير للمرء أن يكون شريك السماء من أن يكون ضحيتها ، وينبغي ألاّ نؤمن بأي شيء في هذا العالم سوى الخمر . إن صيحته هي : الموت للعالم ! حطموا كل شيء ! يجب أن نلغي كل شيء ! (الإلغاء والإطاحة .. هذا هو إنجيلي) إن هذا الهدام يستحق أن ينتقى في رأي الطاعون ، ولهذا ألحقه الطاعون بخدمته » [٩] .

---

(٨) المصدر السابق ص ٤٠ – ٤١ .

(٩) المصدر السابق ص ٤٥ ، ٤٦ – ٤٧ .

أما مسرحية كامي الأخيرة (العادلون) فلا محل لها هنا ، إذ أن معظم النقاد يرون فيها انعطافاً في فكر كامي نحو مواقف أكثر إيجابية ، وتعبيراً فنياً عن مرحلة تفكيره الثانية القائمة على التمرد . . إلاّ أن هذه المسرحية ، ومرحلة التمرد بأسرها ، ليستا سوى موقف لا يعدو أن يكون صرخة احتجاج بوجه عالم يراه — كامي — غير معقول .

ماذا يعني كامي باللامعقول « اللامعقول بمعناه الواسع هو ما لا معنى له . العالم لامعقول وكذا الإنسان ، واللامعقول بمعناه الضيق لا يعني العالم ولا الإنسان وإنما يعني الصلة بينهما ، وهذه الصلة صلة مواجهة ، صدام الوعي الإنساني بالحائط الذي يضيّق الخناق عليه . واللامعقول ينتج عن صدام الوعي نفسه ذلك الصدام الذي يجعل الوعي يستكشف فناء رغباته . أكثر من ذلك ، اللامعقول هو هذا الصدام ، هذا الانفصام المفاجيء (اللامعقول أساساً انفصام لا يوجد في أحد العناصر المقارن بينها ، بل ينشأ عن مواجهة هذه العناصر بعضها البعض) . لا يصح إذن — في نظر كامي — أن نقول ان العالم لا معقول ، بل يجب أن نقول انه مناف للعقل »[١٠] .

لم يحتكر كامي وحده رؤية فوضى الكون وعبثيته

---

(١٠) البير كامي : سوء التفاهم ، ترجمة وتقديم د . سامية أحمد أسعد ، المقدمة ص ١٥ — ١٦ .

ولامعقوليته ، بل ان كثيراً من كتاب المسرح أسهموا معه في عرض الكون من خلال هذا المنظار . . كتاباً جاؤوا قبل كامي أو عاصروه ، وكتاباً جاؤوا بعده . . وواضح أن العمل المسرحي بما يحمله من طابع المأساة ، يدفع الفكر المعاصر دفعاً إلى التأكيد على أن عالمنا الذي نعيش فيه وكوننا الذي ننتمي إليه ، لا يحكمه قانون ولا نظام . . ورغم وجود أساس مشترك لهذه النظرة السالبة للكون والعالم لدى هؤلاء الكتاب جميعاً ، إلاّ أن معالجتهم لهذه القضية الكبرى كانت تتخذ طابعاً مختلفاً بين أحدهم والآخر . . بعضهم وقف عند الحدود السلبية من الرؤية ، بل أغرق في تشاؤميته إلى درجة مركزة قربته من العدمية والنزوع إلى فناء الذات، وآخرون تجاوزوا هذه المرحلة ودعوا إلى مواقف أكثر إيجابية وجدية في مجابهة الفوضى التي تعم الكون.ويقول كولن ولسون Colin Wilson في معرض تحليله لمسرحيات شو Show « حين نحاول أن نقرأ مؤلفات شو على ضوء الأفكار الوجودية تظهر لنا وضعية فلسفية جديدة ، هي أنه بالرغم من أن الحقيقة النهائية قد تكون لاعاقلة ، إلاّ أن علاقة الإنسان بها ليست كذلك . إن الوجودية تعني إدراك حقيقة ان الحياة زاوية صغيرة وصل إليها النظام عرضاً في كون تعمه الفوضى . ويدرك البشر جميعاً هذه الفوضى ، إلاّ أن البعض يفرون من وجهها . وهؤلاء هم المنتمون الذين يمثلون أغلبية البشر . وأما اللامنتمي

فهو الإنسان الذي يواجه الفوضى ، فإذا كان فيلسوفاً مجرداً كهيغل Hegel فإنه يحاول أن يبين أن تلك الفوضى ليست فوضى في الحقيقة وإنما يكمن فيها نظام لا ندركه . ولو كان وجودياً فإنه سيعترف بأن الفوضى هي الفوضى ، وانها إنكار للحياة ، أو انها إنكار للظروف التي يمكن أن تتوفر فيها الحياة . وإذا لم يكن هناك شيء آخر غير الحياة والفوضى فإن الحياة ضعيفة دائماً ، كما يعتقد سارتر وكامي . ولكن لو حدث ووجدت علاقة عاقلة بينهما ، فمن الممكن تجنب التشاؤم النهائي ، لأنه يجب تجنبه إذا كان اللامنتمي يريد أن يعيش على الإطلاق . وهذه المساهمة هي التي تجعل شو مفتاحاً للفكر الوجودي »[11] .

إن سلاكرو Salacrou ، المسرحي المتشائم ، أحد أولئك الذين لم يعدوا الجانب السلبي من رؤياهم العبثية للكون ، وأفكاره « يتنازعها اتجاهان لا يهدآن : أولهما ميل إلى الاضطراب الذهني يؤدي إلى قلب كل المعتقدات رأساً على عقب ، والسخرية من خداع الكلمات ، وعدم الاعتقاد بصفة نهائية إلاّ في اللامعقولية المخيفة لدنيا فوضوية وآلية في نفس الوقت . والثاني ميل معارض للنظام والحقيقة ، مع

---

(١١) كولن ولسون : سقوط الحضارة ، ترجمة أنيس زكي حسن ، الطبعة الثانية ص ٣٥٦ – ٣٥٧ .

إحساس بالحسرة لعدم وجود قيم أخلاقية تسود عالماً مثالياً سعيداً . . وانتهى سلاكرو في مسرحية (الأرض كروية) إلى الاعتراف بافلاس الفكر الإنساني ولامعقولية الحياة التي لا يوجد سبب معقول لبدايتها وانتهائها »[١٢] .

وهارولد بنتر Harold Pinter يضرب على نفس الوتر ، ويسمع قراءه ومشاهديه نفس النغمة : عالم يحيطه المجهول ، مليء بالظواهر الغريبة التي لا يمكن تفسيرها ، باللامعقول الذي لا يتفق والمنطق ، وبالعبث . . وهو نفسه يقول « إن الرغبة في فهم الدوافع رغبة مفهومة ، غير أنه لا يمكن إرضاؤها فليس هناك خط فاصل بين الواقع وغير الواقع ، أو بين ما هو حقيقي وما هو مزيف ، فليس الشيء بالضرورة حقيقياً أو مزيفاً ، فقد يكون حقيقياً ومزيفاً في نفس الوقت »[١٣]

أما المسرحي السويسري ديرنمات Durrenmatt ، فهو رغم اشتراكه مع الآخرين في هذه الرؤية ، إلاّ أنه أكثر تفاؤلاً ، فهو يجيب عن سؤال حول موقف الإنسان في العالم الذي يعيش فيه « إن هذا العالم غريب ، ونحن نشعر بأنه غريب عنا ، ونحن نحاول أن نعقد صداقة معه ، أن نعقد أية قرابة

---

(١٢) سلاكرو : ليالي النضب ، ترجمة وتقديم د . أنيس فهمي ، المقدمة ، الصفحات ٢٨ ، ٤٤ .

(١٣) د . شفيق مجلي : هارولد بنتر ، مجلة المسرح ، العدد ٣٢ ، ص ٥٧ .

بيننا وبينه ، ولكن يظل العالم غريباً . ولأنه غريب فهو مخيف . فالإنسان يخاف ما يجهله ، ويخاف جداً من هو أقوى منه . والعالم أقوى منا . ولكننا نملك شيئاً لا يملكه هذا العالم . فنحن قادرون على التنظيم . . ولكن العالم الذي حولنا هو فوضى ، غير منظم ، والعقل الإنساني هو الذي ينظمه ويرتبه ويفسره ويضع له القواعد والنظريات . ومهمة الفنان أن ينظم العالم الفوضوي وأن يجعل لهذا الشيء الذي لاشكل له شكلاً وإطاراً وقالباً »[١٤] .

ويتقدم المسرحي الألماني المعاصر بيتر فايس Peter Weiss خطوات أخرى نحو الإيجابية ويلزم الإنسان بضرورة اتخاذ موقف جاد إزاء هذا العالم المجنون « فوعي الفنان بفوضى العالم الذي يعيش فيه ، وباختلال العلاقات الاجتماعية حوله ، وبخيبة الأمل في أحلامنا المثالية ، وتأكده من أن العالم قد تسيطر عليه المصادفة والجنون في أي لحظة ، لا يعفيه مطلقاً من كونه جزءاً من هذا العالم ، يؤثر كل منهما في الآخر . إنه في صميم العلاقات ، لا شيء يعفي الفنان من الوقوف عارياً وصادقاً وسط جنون العالم . . وهكذا (يجب على الكاتب أن يتخذ موقفاً ، حتى عندما يرى أن كل شيء مجنون) . بل ان في

---

(١٤) فردريش دير نمات : روموالوس العظيم ، ترجمة وتقديم انيس منصور ، المقدمة ص ١٨ — ١٩ .

ذلك الوضع ما يزيد من مسؤوليته تجاه استرجاع عقل العالم وتنظيمه . . لكن بيتر فايس يعود فيقول انه لا ينبغي أن نطلب من الكاتب حلاً واضحاً ، فالعالم نفسه ليس بواضح . . وربما بممارستي الكتابة سوف اكتشف موضعي »[١٥] .

إن هؤلاء الكتاب مهما تراوحت خطواتهم بين السلبية والإيجابية في موقف الإنسان مما يظنونه فوضى ، إلاّ أنهم يشتركون جميعاً في الإلحاح على وجود هذه الفوضى في أطراف الكون الأربع ، هذا الجنون الذي يضم العالم بين جوانحه ، هذه اللامعقولية بين الإنسان والكون ، وفي وعيه بهذه العلاقة التي تنافي العقل كما أكد كامي . فإذا جئنا إلى معطيات كتاب المسرح الطليعي المعاصر فإننا سنجد تأكيداً يكاد يكون كاملاً في التعبير عن رؤياهم لعبث الكون ولامعقوليته . والخيط الذي يشد مسرحياتهم جميعاً هو الذي عقد كامي بدايته وترك طرفه الآخر ليهتدي إليه كل من يريد أن ينسج على منواله نواحاً على مصير الإنسان في كون مجنون . .

إن كتاب الطليعة هؤلاء قد غدوا ، في العقدين الأخيرين من هذا القرن ، مدرسة مستقلة تقوم أول ما تقوم على القواعد التي يتفق عليها هؤلاء الكتاب جميعاً وهي الفوضى والعبث

---

(١٥) بيتر فايس : مارا صاد ، ترجمة وتقديم د . يسري خميس ، المقدمة ص ١٨ – ١٩ .

واللامعقول ، تلك التي وضع كامي حجرها الأساس . يذكر (رتشارد — كو) في كتابه عن يونسكو كيف « أن كل النزعات التي كبحتها دكتاتورية العقل خلال قرنين من الزمان اندفعت إلى السطح ، وشهد النصف الأول من قرننا العشرين عدة حركات ثورية كالتكعيبية والمستقبلية والسريالية والتعبيرية والدادية والوجودية ، وكلها حركات تسعى بطرائقها الخاصة إلى إلقاء الضوء على موقف الروح الإنساني في كون غاب عنه المنطق . وعندما يختفي المنطق تختفي أيضاً مبررات الوجود . وهكذا نرى أن يونسكو Ionesco — مثل كامي وسارتر — يرى في وجودنا حقيقة لا هي بالمنطقية ولا هي بالمبررة . إنها حقيقة ولكنها حقيقة عبثية ، فالوجود الذي لا يبرره منطق ، عبث »(١٦) وواضح مما ذكره رتشارد — كو أن هذا التأكيد على اللامعقول ليس في حقيقته سوى ردة فعل عنيفة لسيطرة المذهب العقلي طيلة قرنين من الزمان ، على أفكار الناس ورؤاهم ومعطياتهم .. وتاريخ البشرية تراوح دائماً بين الفعل ورد الفعل .. ودائماً كان رد الفعل موازياً للفعل في قوته وعنفه واندفاعه ، وإذ كان المذهب العقلي قد بلغ درجات قصوى من التطرف والدكتاتورية ، كما يقول الناقد ، فإن ردة الفعل بلغت هي الأخرى درجاتها القصوى من العنف

---

(١٦) عرض ماهر شفيق فريد ، مجلة المسرح ، العدد ٩ ، ص ٨٣ .

والتطرف ، حتى غدت على يد الطليعيين مدرسة تفلسف رؤياها اللامعقولة للكون والعالم .

ويمضي رتشارد — كو يبين كيف سعى مسرح الطليعة إلى إلغاء النظرة القديمة (الكلاسيكية) إلى قواعد الكون الأساسية : الزمان والمكان ووحدة الشخصية ، وكيف أنهم كتبوا (دراما الساعات المكسورة) بمعنى أن أبطالهم يعيشون في عالم توقفت ساعاته . وحين يفقد الإنسان الشعور بالزمن تصبح (السن) كلمة لا معنى لها . وما دمنا قد محونا الزمن فقد محونا (تراكم التجارب) التي يأتي بها الزمن ، وعلى ذلك فلا معنى للقول بأن الشيخوخة مثلاً تأتي بالحكمة . وقوانين المكان — من ناحية أخرى — لا معنى لها : فهي تعسفيّة . وصدقها وكذبها رهن بالإنسان الذي يدركها . وغياب التتابع المنطقي يستلزم غياب وحدة الشخصية ، فليست الشخصية سلسلة متصلة من الصفات كما يزعم الكلاسيكيون وإنما هي حالات دائبة التغيّر يتبع بعضها بعضاً ، وما يقوله (م) يمكن ببساطة أن يقوله (ب) دون أن ينجم عن ذلك ضرر كبير . . إن (الأنا) ما هي إلا انعكاس للعالم الخارجي أو قل ان العالم الصغير هو صورة مصغرة مثالية للعالم الكبير ، ففوضى الأول وتشتته تتبدى في الثاني على نطاق أوسع ، وليس هناك خط واضح يفصل بين الاثنين [١٧] ويبين

(١٧) المصدر السابق ص ٨٣ — ٨٥ .

يونسكو – بعبارة واضحة – تهافت الشخصية الإنسانية لأنها ليست – بعد أن تكشف عبث العالم – سوى قطعة من ملايين القطع التي يعبث بها الكون (إن كل شخصياتي على خصام مع الدنيا . . حين كانوا أكثر شاعرية وأكثر فلسفة وأكثر ميتافيزيقية . . أما الآن فقد غمرهم القلق التاريخي الذي يسود العالم وتورطوا فيه) .

والطليعيون هؤلاء يصبون جام سخطهم على المواضعات : العادات والتقاليد وأساليب اللغة والحياة التي أجمع عليها الناس ، وكأنها تنبثق عن قاعدة صلدة من معقولية الكون وهدفية العالم وحركة التاريخ إلى الأمام . . إن هؤلاء الطليعيين يعجبون – بعد أن تكشف لهم تهافت هذه الأسس جميعاً – كيف أن الناس يطمئنون إلى مواضعاتهم تلك ولا يرتضون عنها بديلاً ، في الوقت الذي يرى فيه هؤلاء الكتاب انها ليست سوى ترهات لا رصيد لها في عالم لا يعرف الثبات والمنطق والتطور إلى الأمام . . عالم يدعو إلى الضحك . وإذ يتشبث الناس بموقفهم الذي يبدو للطليعيين مثيراً للشفقة وللسخرية معاً ، يلجأ هؤلاء إلى أشد الأساليب المسرحية إثارة من أجل إلقاء مزيد من الوعي العبثي في أذهان الناس ورؤاهم ، ومن أجل دفعهم إلى الإسراع بتحطيم مواضعاتهم وترهاتهم الاجتماعية التي لا تقوم على أساس « إن الوعي بالعبث لم يتخذ عند الطليعيين طابع المأساة الذي رآه كامي . فالمأساة مدخولة

في رؤاهم بالمهزلة. حقيقة انه عالم رهيب ـ كما يقول يونسكو ـ إلاّ أنه عالم لا يمكن أن يؤخذ مأخذ الجد ، فهو يوشك لفرط سخفه أن يكون مضحكاً . . وكتاب الطليعة لم يتخذوا ذلك المسار اختياراً ، بل أرغمهم الوعي بالعبث على التخلي عن كل تصور للوجود حازه العقل أو تعلل به من قبل ، ودفع بهم إلى الانصياع لرغبة بدت لهم ، في ضوء ذلك الوعي ، أخلاقية مشروعة : رغبة في التخلص من التعود الذي وجدوه متأصلاً في النفس ، علة تقبل الوجود من خلال مسلمات تجدها النفس مريحة لها لمجرد كونها مأمونة سهلة وميسرة ، لطول التواضع عليها ، حتى ولو كان الوجود ذاته يجردها من كل معقولية ويكشف عن عبثها » [١٨] .

وهكذا غدا مسرح العبث « مسرح عنف كوميدي وعنف درامي من أجل أن يضع المشاهد وجهاً لوجه أمام الحقائق العارية المريرة لما وصلت إليه الحالة الإنسانية كما يراها كتاب هذا المسرح . فهو في جملته تحد للإنسان الغربي لأن يتقبل الحالة الإنسانية ، في زمانه ، على ما هي عليه حقاً ، بكل ما فيها من ضياع ، وخوف ، وعبث . . إنهم ـ في موقفهم هذا ـ لا يجافون العقل ، إنما هم في صدام مع عصر قد خلا من العقل ، وفي تمرد على وجود كشف عن عبثه » [١٩] ومن

---

(١٨) يوجين يونسكو : « مسرحيات طليعية » ترجمة وتقديم شفيق مقار ، المقدمة ص ١١ ـ ١٣ .

(١٩) المصدر السابق ص ١٣ ـ ١٤ .

ثم فإن رؤياهم المفجعة - هذه - للعبث لم تتح لهم أن يطمئنوا إلى الشكل المسرحي العقلي (الأرسطاطالي) أداة للتعبير ، فالمضمون في العمل الفني هو الذي يحدد الشكل ، لذا تمرد يونسكو - ورفاقه - على الواقعية المسرحية - ورفضوا الواقع المنقوص الذي تصدر عنه وتصوره وتفرضه اعتسافاً ، وانصرفوا إلى عرض ما كان يتراءى لحسهم الفني ووعيهم الإنساني كواقع شامل بكل ما فيه من مأساة ومن مهزلة ، وكل ما فيه من عبث وخواء وتناقض[٢١] .

من رؤية كهذه تأخذ بخناق كتاب العبث « ينبثق أحياناً إحساس بأن كل شيء مضحك مزر . وأحياناً أخرى إحساس باليأس لكون العالم سريع الزوال ، موقوتاً ، عارضاً إلى هذا الحد . . . فهو عالم يبدو كأنما لم يعد فيه شيء ، ولم يعد فيه أساس ينبني عليه أي شيء . شيء واحد فقط هو الذي يظل ماثلاً في الوعي بكل حدة : التمزيق المستمر لقناع المظاهر . . الدمار الذي لا ينقطع لكل ما يبدو راسخاً ومكيناً ، بحيث لا يعود هناك ما هو قائم ومتماسك ، والكل يغدو حُطاماً »[٢١] .

إن الطليعيين ، وعلى رأسهم يونسكو ، يجدون أنفسهم

---

(٢٠) المصدر السابق ص ٢١ - ٢٢ .
(٢١) المصدر السابق ص ٢١ - ٢٣ .

أسرى احساسين تجاه العالم ، كلاهما صعب محزن ، وكلاهما مرّ كالعلقم ،وكلاهما ينتهي بصاحبه تارة إلى الضيق والاختناق ، وتارة أخرى إلى ضحك مقلوب كذلك الذي عبر عنه (المعرّي) في قصيدته الدالية وقال انه ضحك كالبكاء . إحساسان يتناوبان هؤلاء الكتاب ، ويقلبانهم ذات اليمين وذات الشمال أحدهما « إحساس بالزوال . . في عالم بلا فضاء من الضوء واللون ، إحساس يبدو الوجود ، من خلاله ، عديم الجدوى ، مستحيلاً ، بلا مغزى . وتلك هي ذروة الوعي بالعبث . . حيث يتكشف العالم كخيال موهوم ، بعيد عن الاحتمال والتصديق ، ويبدو الواقع واللغة فيه كما لو كانا يتفككان ويتهاويان قطعاً متناثرة ، ويفرغان من كل معنى ، بحيث يبدو في النهاية أنه ما دام كل شيء قد تجرد من الأهمية ،فما الذي يسع المرء أن يفعله الا أن يضحك من كل شيء ؟ ! »[٢٢] .

والإحساس الآخر ،ما هو الإحساس الآخر ؟ إنه إحساس مقابل تماماً ، إذا كان ذلك يكمن في أقصى اليسار ، فإن هذا يكمن في أقصى اليمين ، إحساس يرينا صورة محزنة لما تجره حضارة المادة والخواء الروحي على الإنسان من ألم وغصة واختناق ، إنه « إحساس بالاكتظاظ ، بالتواجد في قلب الواقعة البحتة ، وهو إحساس ينتهي — عند يونسكو —

---

(٢٢) المصدر السابق ص ٢٣ — ٢٤ .

إلى قلب المسألة المأساوية ، فهو وعي بكل شيء ، وقد أفعمته المادة وفاضت حتى شغلت كل ركن فيه ، ومحت كل حرية تحت وطأة عبئها المبهظ ، وقلصت الوجود وخنقته ، فانكمش الأفق ، وأصبح العالم قبواً خانقاً ، وتهاوى الكلام فتاتاً لا معنى له ، والكلمات قد أفرغت من معانيها وحلت محلها الجوامد والأشياء فأكملت غرق الإنسان »(٢٣) .

والآن بقي علينا أن نعرف موقف الطليعيين هؤلاء من قضايا ثلاث . بقدر علاقتها بفوضى الكون وعبث العالم . تلك هي : اللغة ، الموت والأحلام .

تكلمنا عن اللغة في مكان آخر من هذا البحث بما فيه الكفاية ، عندما تكلمنا عن عزلة الإنسان وكيف أن اللغة ، بشكلها الراهن ، لم تعد تجدي نفعاً في خلاصه من عزلته كما يرى الطليعيون (*) أما الآن فنريد أن نبين — باختصار — كم أن اللغة في عالمنا هذا ليست سوى انعكاس لعبث هذا العالم وفوضاه ، ولامعقوليته ، « فاللغة تشترط سلفاً وجود مواضعات منطقية معينة يستطيع المتحدثون أن يستندوا إليها في تفهمهم بعضهم لبعض . وان يحتكموا إليها حين يشجر بينهم خلاف حول فكر أو معنى . فإذا انهار النظام المنطقي

---

(٢٣) المصدر السابق ص ٢٣ — ٢٤ .

(*) انظر الفصل الثاني .

العقلي الذي يهيمن على حياة الناس فعن أي شيء تستطيع اللغة أن تعبر ؟

... وهكذا أصبحت اللغة شاهداً من شواهد العبث على وجود قائم على العبث »[٢٤] . ويحاول يونسكو وغيره من كتاب الطليعة ، أن يدللوا على العبث الكامن في اللغة حيث يكثرون من استخدام المسلمات التافهة والأقوال العادية التقليدية التي تشكل مادة الحديث اليومي ، والشعارات والكليشهات التي عفا عليها الزمن وامتص منها كل مضمون ، حتى فاحت منها رائحة القدم والعطن ! ! [٢٥] .

والموت ، ما موقف كتاب الطليعة منه ؟ لقد رأينا كيف أن كامي اعتبره مأساة المآسي وواقعة الوقائع ، وأم الأحزان ، وانه السبب الرئيسي في تجريد الحياة من المعنى (ما دمنا سنموت فليس لأي شيء معنى) ، وارتكن إليه في القول بعبث العالم ، إذ لو كان العالم مجدياً (فلماذا يموت الناس وهم ليسوا سعداء ؟) . إن يونسكو رائد اللامعقول — يقف — كبقية رفاقه — أمام الموت يتأمله . وتشيع هذه الوقفة في فنه ، على الأخص في (قاتل بلا أجر) و (الملك يحتضر) ، كما

---

(٢٤) نبيل حلمي : يونسكو ومشكلة اللغة ، مجلة المسرح ، العدد ١١ ، ص ٨٨ — ٩١ .

(٢٥) المصدر السابق ص ٩٠ .

تشيع في (الايام السعيدة) لصموئيل بكت «والموت يثير الرعب لا لأنه واقعة فظيعة في حد ذاتها، بل لأنه يجعل كل الحياة التي سبقته عبثاً وسخفاً. فضلاً عن أنه في حد ذاته لا معنى له. وقد عبر إحساس يونسكو بالموت عن روح العصر .. العصر الذي مضت النازية تحطم الإنسان فيه ، وألقيت فيه على هيروشيما القنبلة الذرية ، ثم ظهرت القنبلة الهيدروجينية مهددة الوجود بالدمار الشامل في كل لحظة ، وبإحالة كل وجود البشر إلى أنقاض وعدم ، ولهذا يقول يونسكو : إن الواقع كابوس مؤلم لا يطاق . انظروا حولكم ماذا تجدون ؟ حروباً ودماراً ، ويلات وأحقاداً ، واضطهادات ، والموت لنا بالمرصاد . لقد خلقنا كي نكون خالدين ومع ذلك نموت . الأمر مخيف ، ولا يمكن أن يحمل محمل الجد »(٢٦) . . . ضربات مفعمة بالأسى على نفس الوتر الذي عزف عليه كامي من قبل . وإذا كان كامي قد رأى في الموت واقعة ميتافيزيقية تستل الأفراد من الوجود استلالاً ، فإن الطليعيين رأوا في الموت ، فضلاً عن ذلك ، واقعة حضارية ، بل بالأحرى لاحضارية، عملاً بشرياً إرادياً ، ينتزل على الإنسان والجماعات والشعوب ، من الإنسان نفسه على شكل حروب مدمرة ،

---

(٢٦) د. نعيم عطية : الخطوط العريضة في مسرح يونسكو ، مجلة المسرح ، العدد ١١ ، ص ٩٥ عن يوجين يونسكو : ملاحظات وملاحظات عكسية ص ٩١ .

أو قنابل لا تبقي ولا تذر . . إلاّ أن الطليعيين سرعان ما يعودون إلى زاوية رؤياهم الميتافيزيقية ، الأشد أسى ، والأعمق دلالة على عبث الكون : لقد خلقنا كي نكون خالدين ، ومع ذلك نموت ! ! الأمر مخيف ولا يمكن أن يحمل محمل الجد ! !

وتجيء الأحلام من وراء الواقع الواعي ، والنظرة العقلية للأشياء ، تجيء عندما ينام الإنسان ، على شكل رؤى لا حصر لها ، تتحطم فيها عناصر الزمان والمكان ووحدة الشخصيات ، ويزداد إيحاؤها الدرامي تركيزاً : الحدث المأساوي يزداد مأساوية ، يفعمه حزن عميق ، فيه يأس مريع وفيه أسى . . والحدث الملهاوي يزداد ملهاوية ، تغمره سخرية عجيبة فيها تناقض ساخر وفيها مهازل تفوق حدود الخيال الواعي . . ومن بين الأحلام تبرز الكوابيس أحياناً : تركيزاً قاسياً من الخوف والرعب والارتعاد . . يركض الإنسان للخلاص دون جدوى ، إذ أنه لا يستطيع أساساً نقل خطواته . . ويصرخ مستغيثاً دون جواب . . إذ أنه لا يستطيع أساساً إخراج كلماته من شدقيه ، رعب غير معقول ولا يقوم على أساس . . وإذا كانت هذه سمات الأحلام والكوابيس : تحد لقواعد المعقول : الزمان والمكان ووحدة الشخصية ، وإغراق في التناقض بين المأساة والملهاة ، وتركيز قاتل للرعب ، وعدم قدرة على الخلاص . . الا يمكن اعتبارها إذن مرآة أصدق تعبيراً عن الكون والعالم ، وعن وضع الإنسان فيهما ، حيث تحطمت

أسس المكان والزمان وتهافتت الشخصيات ، وملأ الرعب أرجاء الكون ، وفقد الإنسان المقدرة على الخلاص ؟ ! مرآة لا تدانيها في الجلاء والنقاء مرآة الواقع الذي لا يمكن ـ بحال ـ أن يقدم ذات الصورة العجيبة التي يقدمها الحلم أو الكابوس مقتطعة من عجينة الكون ، ومن سدى العالم ولحمة حركة الإنسان فيه ؟

ذلك ما يذهب إليه الطليعيون ـ فعلاً ـ وذلك سر تعلقهم المسرحي بالأحلام والكوابيس شكلاً ومضموناً ، إنهم يلجؤون إليها يوم يلجؤون لاعتقادهم العميق أنه ما من إطار يجعل الناس يرون واقعهم اليومي الذي يتخبطون فيه كالأسماك، مثل الحلم . أكثر من ذلك ، إنهم يرون الأحلام جزءاً أساسياً من الواقع الأشمل الذي يضم الواعي وغير الواعي ، اليومي والعالمي. ما دام الكون والعالم يفتقدان ـ أساساً ـ الخط الفاصل بين المعقول واللامعقول ، فلماذا يرتكب الإنسان خطأ الفصل بين اليقظة والمنام ؟ ! لا تضاد هناك ـ إذن ـ بين « الحلم الذي يعتمده الطليعيون بكثرة ، وبين اليقظة . بل الحلم لديهم امتداد لليقظة ، وهو فعل من أفعال الخلق يتم من خلال استكشاف الواقع الأشمل ، من حيث أن الواقع المحدود الذي تتخيله الواقعية في العالم الخارجي وحده ، يحتويه الواقع الأعمق والأوسع للأحلام ، وليس العكس . إلا أن الواقع الأشمل الذي يلم به الحلم يبدو لنا ـ عندما نراه في منظور العالم

الخارجي – أقرب إلى الكابوس ، فالإنسان لا يخشى شيئاً قدر خشيته للامألوف ، ومع ذلك فإننا ، فيما يرى الطليعيون ، يجب أن نواجه ذلك الخوف في سبيل الإلمام بواقع الوجود ، وفي سبيل النفاذ إلى ما وراء ذلك العرض الظاهري الباعث على الراحة الذي تخدعنا به النظرة الواقعية ، إذ تصور لنا عالماً قائماً على العقل والمنطق . وبالحري ما الذي يستطيعه الفنان إزاء عالم يراه (كابوساً لا يطاق ، وشبه حلم مخيف : حروب وكوارث ووبال ، كراهية واضطهاد وفوضى ، وموت يتربص بنا جميعاً ، بينما نحن نتكلم فلا يفهم أحدنا الآخر ونناضل قدر ما يسعنا الجهد ، في عالم يبدو أنه في قبضة حمى رهيبة . . ألا نكون محقين إذا ما أحسسنا أن هذا العالم ليس لنا ، إنه ليس عالمنا الحق ؟) . ما الذي يستطيعه الفنان إزاء عالم كهذا ، إلاّ أن يمزق قناع اللاواقع من حوله ، قناع المظاهر الذي يصطنع للعالم منطقاً ، ويدعي له عقلاً ، بالرغم من كل ما يطالع العالم الإنسان به من لا عقل ، ولا منطق ، ولا قواعد ؟ »[٢٧] .

والأمل ؟ أليس هناك أمل في التصالح مع الكون ؟ في البحث عن قواعد معقولة له ؟ في إيجاد مرتكزات منطقية يثبت الإنسان عليها أقدامه ، عبر حركته وتنقله من مكان

---

(٢٧) « مسرحيات طليعية » ، المقدمة ص ٢٨ – ٢٩ .

إلى مكان ، ومن زمان إلى زمان ؟ ألا يوجد هناك أمل ، على الأقل في كشف جانب من جوانب المصير الإنساني في كون تلفه دوامة رهيبة من الغبش والضباب ؟ ! « الحياة لا معقولة، الموت لا معقول . اللامعقول يسود كل الأرجاء . لكن هذا اللامعقول ذاته يبدو غريباً ، مثيراً للدهشة ، ومحيراً . ربما كان ثمة سبب للوجود أبعد من متناول عقولنا . إن كل شيء لامعقول إلى الحد الذي يصيح المرء إزاءه . . محال . . محال . . أن يقف الأمر عند هذا الحد ، ربما كان ثمة ما هو أبعد من العقل ؟ ! ربما كان ثمة سبب معقول لكل شيء . ربما . من يدري ؟ ! (راجع أصداء هذه الصرخة في « قاتل بلا أجر » ليونسكو) لهذا فإن ادعاء اليقين هو شيء ممجوج ، ولهذا أيضاً كان الخيال مبرراً ومشروعاً . ويجب أن نقف على الدوام جميعاً صائحين : سنقاوم . . سنقاوم كل شيء ، حتى هذا اللامعقول الذي يحيط بنا ، مثلما صاح بيرانجيه بطل (الخراتيت) عندما أضحى الناس جميعاً من حوله خراتيت : هناك دائماً الأمل ، الأمل الميئوس منه ، كما عند بكت ، البرغوث الذي يمكن أن تبدأ منه الحياة من جديد في (لعبة النهاية) . كل شيء في هذا الوجود زيغ وضلال . . حتى الاعتقاد اللامعقول . إذ أنى لي أن أعرف أن هذا الاعتقاد أو ذاك لامعقول ، ما لم يكن عندي صورة دقيقة لما هو المعقول أصلاً ؟ ويستبيح يونسكو لنفسه على الدوام أن يناقض نفسه ،

وان يهدم حججه بحجج أخرى ، ويعتقد أن ذلك هو أقرب إلى الصدق والشرف »[٢٨] .

أما صموئيل بكت فإنه ، إذا ما وجهنا إليه سؤالاً كهذا : الأمل ؟ يصل جوابه بنا إلى أمداء بعيدة ، غاية في التطرف والعداء بين الإنسان والكون المحيط به ، ذلك أن الإنسان في نظره « أشرف ما في الكون ، والذي ينير حقيقته ليس هو الكون ، لأن الكون أبكم أعمى لا ينطق ولا يبين ولا يدري من أمره شيئاً ، وإنما يجد الإنسان في داخل نفسه ما يضيء له حقيقة نفسه . . وتلك هي خلاصة فلسفة بكت التي يدين بها لإمام الوجودية المسيحية (بسكال) ، فعند الأخير أن الإنسان ، وان يكن نبتاً ضعيفاً ، إلاّ أنه نبت مفكر ، وان الكون إن أهلك الإنسان ، فإن الإنسان يكون أشرف ممن يهلكه ، لأن الإنسان يعلم أنه يموت ، أما الكون فلا يدري ماذا يفعل ؟ ! ولا تنتهي مسرحيته الشهيرة (الأيام السعيدة) بإسدال الستار . ذلك لأن بطلتها (ويني) عندما تنهض من تحت الربوة — القبر — لترد على تحية الجمهور ، إنما تؤكد فكرة العود الأبدي التي قال بها نيتشه أو فكرة البعث الذي تنتصر به على الموت وتعود به إلى الحياة . فالحب أقوى

---

(٢٨) د . نعيم عطية : الخطوط العريضة في مسرح يونسكو ، مجلة المسرح ، العدد ١١ ، ص ٩٥ .

من الموت ، وأقوى من الاثنين : الإنسان » ! ! [٢٩] .

وإذا كان ثمة جانب أكثر إيجابية في مسرح الطليعيين هذا فهو أن هذا المسرح في جملته — كما يعتقدون هم — « تحدّ للإنسان الغربي لأن يتقبل الحالة الإنسانية ، في زمانه ، على ما هي عليه حقاً ، بكل ما فيها من خوف وضياع وعبث ، وأن يحتملها بما يليق بإنسانيته من نبل ومسؤولية . وليس في مثل ذلك التحدي يأس أو هروب . . إنهم يبحثون عن معنى جديد وإمكانيات جديدة للوجود الإنساني ، عن أخلاقيات وقيم جديدة ، وعن شجاعة جديدة أيضاً يواجه الإنسان الغربي بها عزلته في عالم يرونه عبثاً وخواء ، ومصادفة بحتة ، وانهم — في رأيهم — لا يجافون العقل إنما هم في صدام مع عصر قد خلا من العقل ، وفي تمرد على وجود كشف عن عبثه . . » [٣٠] .

* * *

تلك هي الخطوط العريضة للفوضى التي تعم الكون والعالم ، ولا تدع لحركة الإنسان فيها هدفاً محدداً أو مصيراً

---

(٢٩) جلال العشري : صمويل بكت والأيام السعيدة ، مجلة المسرح ، العدد ٨ ، ص ١٠٤ .

(٣٠) ٥ مسرحيات طليعية ، المقدمة ص ١٣ — ١٤ .

معلوماً . كون أنشأته الصدفة العمياء ، وعالم لا يقوم على قاعدة من العقل . . وإذا كان الناس طيلة تاريخهم قد اتفقوا على مواضعات وأخلاق وقيم وتقاليد ، فما ذلك إلاّ لأنهم مجانين ، أو عميان لم يروا بوضوح عبث الكون أو يعقلوا سخف العالم . إذ أنى لهم أن يصطلحوا على ما هو ثابت في حياتهم ، وليس هنالك شيء يمتلك عناصر الثبات ، لا الزمان ولا المكان ولا وحدة الشخصية أو اللغة أو التقدم الدائم إلى الأمام ؟ ثم ان العقل الأكبر الذي ظنوا أنه يسير الكون والعالم إلى مصير معقول ثبت انتفاؤه وتهافته إزاء العبث الطاغي الذي يلف الكون ولا يدع لشيء فيه أن يقر له قرار . .

ومن خلال هذه الفوضى التي يراها كتاب المسرح المعاصر تأخذ بخناق الكون ، قدموا أجوبتهم المحزنة عن كثير من الأسئلة التي تطرح في موضوع خطير كهذا : الهدف من خلق الكون ، المصير الذي سيؤول إليه ، طبيعة العلاقة القائمة بين الإنسان والعالم الذي يضطرب فيه ، الحكمة العليا من تشكيل الكون بهذا الشكل ومن وضع الإنسان فيه بهذا الوضع . . أجوبة حزينة سالبة يضمها إطارٌ واحد هو العبث واللامعقول ، وانه إذا كان ثمة أمل ، أمل ضئيل ، فهو في أن يقف الإنسان ، وجهاً لوجه ، أمام هذا العبث الكوني ، ويتمرد عليه ، على الأقل ليثبت نبله وشرفه الإنساني

الذي يأبى الخضوع للقوى العمياء التي تسوقه إلى مصيره المفجع الكالح . .

وهنا نكون قد وضعنا أولى خطواتنا في المرحلة الأخيرة من هـــذا البحث ، وهي أهم المراحل على الإطلاق ، وأكثرها إيضاحاً لما نحن بصدده من تحليل لرؤية المسرح الغربي المعاصر للكون والعالم والإنسان . . المرحلة التي سنتناول فيها طبيعة العلاقة بين القوى الغيبية والإنسان ، أو ما يطلق عليه في تاريخ الفكر : مشكلة القدر والحرية ، لنرى ما إذا كانت الفوضى قد سادت هي الأخرى تصور الغربيين لهذه العلاقة الأساسية . . ونحن نجزم مقدماً أنها قد سادت هنا ، كما سادت هناك ، وكما هي سائدة في كل مكان وفي كل موضوع يحدثنا عنه المسرح المعاصر . . هذا ! !